على أعتاب الفجر

رحلة في الفكر والجهاد والمحنة

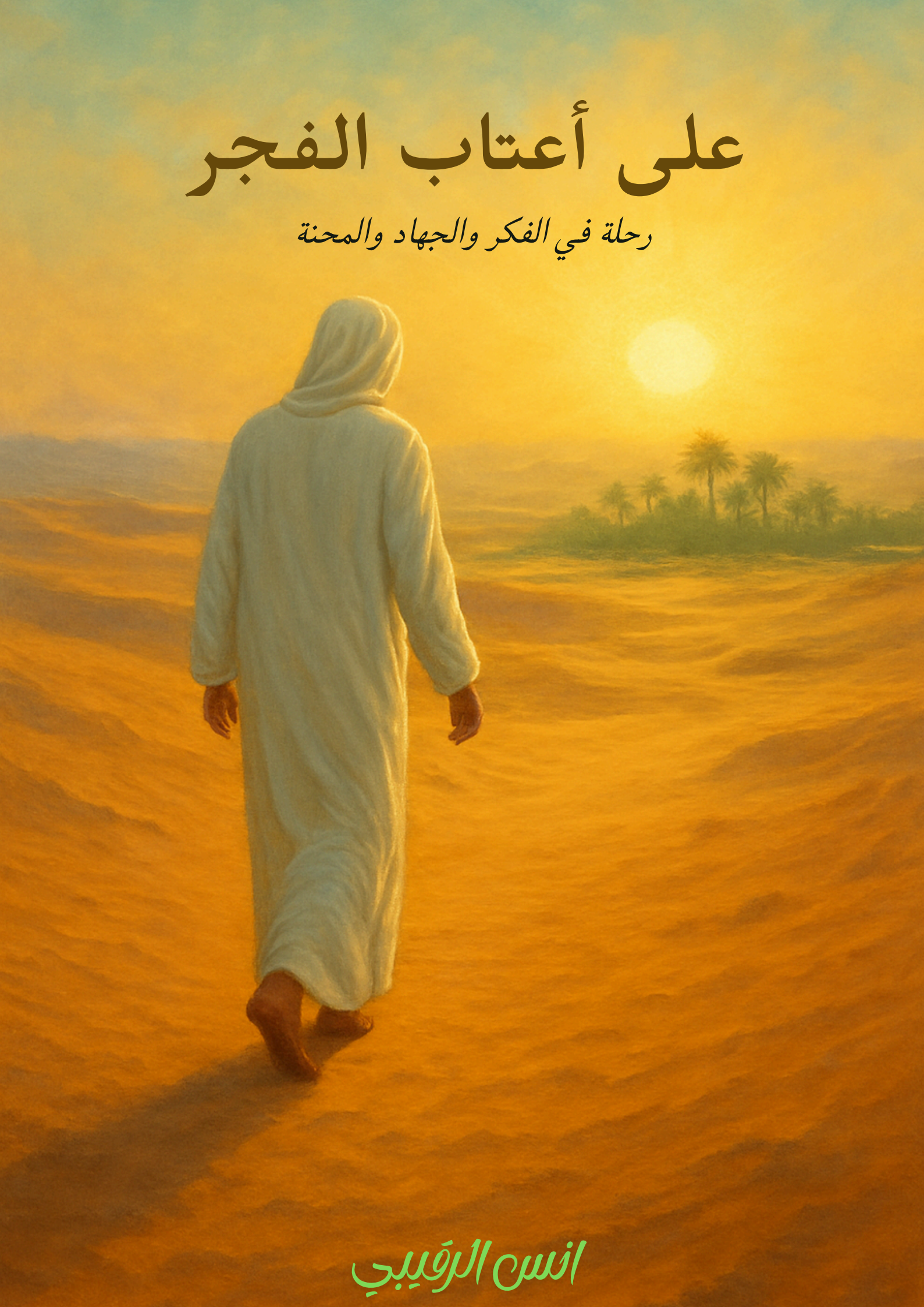

انس الرفيبي

الفصل الأول: اللقاء

لم تكن تلك الليلة ككل الليالي.
المدينة نائمة، ولكن صدور البيوت مكتظة بالأنوار الكهربائية، وضجيج السيارات يتناثر في الشوارع كحشراتٍ لا تهدأ. كنتُ أمشي ببطء، كأن قدميّ مثقلتان بهمٍّ لا يُحتمل. داخلي ظلمة حالكة، لم يُبدِّدها ضوء الشوارع، ولا أحاديث الناس، ولا مكتبات الإنترنت المفتوحة على كل شيء إلا المعنى. كنتُ أبحث عن شيء لا أعرف اسمه، عن نورٍ يتجاوز هذه الحياة المتسارعة، عن معنى يطمئن به الفؤاد.

توقفت أمام مكتبة صغيرة لم أرها من قبل، رغم أنني مررت بالشارع نفسه عشرات المرات. باب خشبي عتيق، ونافذة زجاجية غطاها غبار كثيف، ورائحة ورق قديم تتسلل إلى الخارج. دفعني الفضول لأن أدخل. وحين فتحت الباب، خُيّل إليّ أنني لا أدخل مكانًا من أماكن الدنيا، بل فضاءً آخر له قوانينه الخاصة.

بين رفوف الكتب المتربة، كان ثمة رجل جالس على كرسي خشبي بسيط، أمامه كتاب مفتوح، ووجهه تشرق منه هيبة لا تخلو من ودّ، ووقار لا يخلو من رحمة. عيناه نافذتان، كأنهما تخترقان أعماقي لتقرأ ما لم أبح به لأحد. لم يكن غريبًا عليّ، كأنني رأيته من قبل... أو كأنني كنت أنتظره منذ زمن بعيد.

ابتسم وقال بصوت هادئ، فيه دفء الأب وحزم المربي:
–جئت تبحث عن شيء يا بُنيّ، أليس كذلك؟

تلعثمت وأنا أشعر أن لساني يعجز عن حمل ما يعتمل في صدري:
–نعم... أبحث عن معنى، عن نور يضيء لي الطريق.

مرّر يده على الكتاب أمامه وقال:
–النور لا يُطلب في الأسواق ولا في ضجيج الدنيا. النور يُطلب في الصمت، في جوف الليل، في صحبة تُذكّرك بالله إن نسيت، وتشدُّك إلى طريقه إن ضعفت. اجلس، أحدثك عن رحلتي... لعلّك تجد فيها ما تبحث عنه.

جلست أمامه، وأنا لا أزال مشدوهًا بحضوره. كان كأنفاس الفجر حين تشقُّ سكون الليل. راودني خاطر لم أجرؤ على التصريح به :*هل يُعقل أن أكون جالسًا أمام عبد السلام ياسين؟*

التفت إليّ، كأنه سمع خلجاتي، وقال:
–نعم، أنا عبد السلام. عبد ضعيف بين يدي ربه، لكنه شاء أن يحمل أمانة الكلمة والدعوة، في عالمٍ أنهكته الغفلة، وأنهكه الظلم. اسأل يا بنيّ، فالحياة قصيرة، والوصايا أثقل من أن احملها وحدي.

ارتجفت. لم يعد المكان مكانًا مألوفًا. رفوف الكتب صارت كأنها جدران نور، ورائحة الورق صارت نسيمًا يذكّرني بمساجد الطفولة. شعرت أنني لست في مكتبة عادية، بل في عالم بين الدنيا والبرزخ، بين الغيب والشهادة.

قلت وأنا أتشجع:
–يا سيدي، طالما سمعت باسمك، وقرأت بعض ما كتبتَ، لكنني اليوم أجد نفسي وجها لوجه أمامك. أريد أن أعرف: من أنت؟ كيف بدأت قصتك؟ ما الذي جعلك تحمل هذا الهمّ الثقيل، همّ الأمة كلها؟

ابتسم، ثم رفع بصره إلى الأعلى، وقال بصوتٍ فيه نبرة الشكر:
–أنا عبد من عباد الله، رُزقت القرآن صغيرًا، وتشبعت بحب العلم والمعرفة شابًا، ثم ساقني الله إلى من دلني عليه شيخًا ومرشدًا. ما أنا إلا سائرٌ في طريق طويل، يبتدئ من القرآن وينتهي إلى الله. فإن أردت أن تسافر معي، فسأحدثك عن طفولتي، عن أيامي الأولى، عن بداياتي بين القرية والمدرسة، بين الحروف الأولى في المصحف وأحلام الصبا.

أطرق قليلًا، ثم تابع:
–لكن اعلم، يا بني، أنني لا أروي سيرتي لأجل السيرة نفسها، بل لأجل العبرة. ما كل من عاش طفولةً كالطفولة يبلغ ما بلغه الله به. إنما هو فضل الله، وامتحانه، وابتلاؤه.

شعرت أنني أمام نهر عميق من المعاني، وأنني إن مددت يدي لأغترف، فإن كفي ستغرق قبل أن تمتلىء.
قلتُ وأنا أستجمع شجاعتي:
–إذن، يا سيدي، خذ بيدي، حدثني عن بداياتك.

عندها، نهض ببطء من كرسيه، وأشار إليّ أن أتقدمه. فإذا بالمكتبة تتلاشى جدرانها شيئًا فشيئًا، ونجد أنفسنا في فضاء أرحب، كأننا فوق بساطٍ سحري يسير بنا عبر الزمن.
كان الليل من حولنا ساكنًا، ولكن في قلب السكون تتلألأ أنوار صغيرة، كأنها محطات على الطريق.

قال لي وهو يشير إلى البعيد:
–هناك يا بني، ستبدأ الرحلة. من طفولة بعيدة، من زمنٍ لم تكن فيه المدن مزدحمة ولا الشوارع مضاءة، بل كان فيه قلب صغير يتلمس النور في أول آيات كتاب الله.

تسمرت عيناي نحو الأفق، حيث بدأت تظهر ملامح قرية بسيطة، بيوتها من طين، وأزقتها ضيقة، وأصوات أطفال يتلون القرآن في كتاب صغير بجانب مسجد.
ابتسم الإمام وقال:
–ها هنا كانت البداية...

الفصل الثاني: الطفولة والجذور

لم أكن أصدق أنني أعبر الزمان بهذه السهولة، لكن البساط الذي حملنا كان ينساب بين طيات الليل كأنما يخترق طبقات من النور والذاكرة معًا. ما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي وسط قرية هادئة، رائحة التراب المبتلّ بالمطر تملأ المكان، وأصوات الديكة تعلن ميلاد يوم جديد.

أشار الإمام إلى بيت بسيط، سقفه من تراب مدكوك وجدرانه من طين، وقال بصوت يقطر حنانًا:
–هنا وُلدت يا بُني. هنا فتحتُ عيني على الدنيا، لا قصور ولا أبهة ولا دنيا واسعة، بل بيت صغير يكتنفه الفقر، لكنّه كان عامرًا بالدفء الإيماني.

اقتربنا من الباب، ودخلنا معًا، فإذا بطفل صغير يجلس إلى جوار أمه، عيناه واسعتان، يحمل بين يديه لوحًا خشبيًا نقش عليه أولى الآيات.

قال الإمام:
–ذاك أنا... عبد السلام الصغير. كنت أجلس هكذا ساعات طوال، أتردد مع صبية القرية على *المسيد* حيث نُلقّن القرآن حرفًا حرفًا، آيةً آية. لم أكن أدرك يومها أن تلك الحروف التي أتهجّاها ستغدو لاحقًا عماد حياتي، ونور رحلتي، وزادي في الطريق الطويل.

جلسنا بجوار الطفل، نسمع صوته الطفولي وهو يتلو: *"اقرأ باسم ربك الذي خلق..."*. ارتعشتُ وأنا أستمع، كأن صوتًا صغيرًا يوقظ فيّ جذور الفطرة الأولى.

تنهد الإمام وقال:
–يا بني، الطفل حين يتذوق القرآن في صغره، يكون كمن غُرس في قلبه بذرة نور. قد يبتعد لاحقًا، قد يضل، لكن البذرة تبقى حية، تنتظر ماء الصدق لتورق من جديد. لذلك أقول دائمًا: أول لبنة في البناء أن نحفظ أبناءنا كتاب الله، ففيه سرُّ العمر كله.

خرجنا من البيت، نسير في أزقة القرية. أطفال يركضون حفاة، نساء يحملن جرار الماء، رجال يتبادلون السلام على عجل قبل الذهاب إلى الحقول. كل شيء بسيط، لكنه عميق الدلالة.

سألته وأنا أتأمل المشهد:
–وكيف كانت طفولتك بين هؤلاء؟
ابتسم، وعاد بذاكرته إلى الوراء:
–كنتُ طفلًا كباقي الأطفال: ألعب وأمرح، لكنّ القرآن كان ميزاني. كنت أشعر أنني مختلف قليلًا، ليس بتفوقٍ دنيويّ، بل بشيءٍ غامض في القلب. كنت أحب السكينة أكثر من الصخب، أحب الإنصات أكثر من اللهو. ولعلها إرهاصات طريق قدّر لي أن أسلكه لاحقًا.

ثم توقف فجأة، وأخذ يحدّق في الأفق:
–غير أن الطفولة لم تكن فقط بساطة وطمأنينة، بل كانت أيضًا بداية وعي مبكر بالظلم. كنت أرى الفقراء في القرية، أرى الأرامل، أرى القلوب المحرومة. منذ الصغر، كان داخلي سؤال: لماذا يبيت بعضنا جائعًا وبعضنا شبعان؟ لماذا يُظلم الضعيف ويُكرّم القوي؟

اقترب مني وقال بصوت فيه نبرة شديدة:
–اعلم يا بني، أن من شبَّ وفي قلبه حسٌّ بالعدل، فإنه لا بد أن يحمل همّ الأمة يومًا. الطفولة ليست براءة فقط، بل هي أيضًا أول مدرسة للعدل والإحسان.

عدنا إلى *المسيد* .شيخ مسنّ بلحية بيضاء يقرأ على مجموعة من الصبية، يوجّههم بعصاه الصغيرة، يبتسم حينًا ويغضب حينًا.
أشار الإمام إليه وقال:
–هذا شيخي الأول. لم يكن عالمًا كبيرًا في الدنيا، لكنه كان يحمل بين يديه أمانة القرآن. على يده فتحت قلبي للحروف.

ثم التفت إليّ وقال:
–هكذا تبدأ القصص الكبرى يا بني: بحرف، بكلمة، بآية. لم يولد أحد عظيمًا دفعة واحدة، بل تبدأ العظمة من تربية خفية، من يد شيخٍ بسيط يلقنك "الحمد لله رب العالمين"، ومن قلب أمٍّ تبكي في الليل وتدعو لك بالثبات.

سكت لحظة، ثم تابع كأنه يريد أن يرسخ المعنى في قلبي:
–لهذا، أقول: الأمة لا تُبنى في قصور الملوك، بل في الكتاتيب، في المساجد الصغيرة، في قلوب الأمهات الضعيفات، في أيدي الشيوخ المغمورين. من هنا تبدأ النهضات، ومن هنا تبدأ قصتي أنا.

شعرت أنني أتنقل بين مشهد وآخر، بين طفل يتهجّى القرآن، ورجل يحمل همًّا ثقيلًا، وبين قرية صغيرة ستصير نواة لفكر كبير.

قلت له وأنا أحاول أن أستوعب:
–إذن طفولتك لم تكن مجرد مرحلة عابرة؟
أجاب بنبرة حاسمة:
–لا، يا بني. الطفولة هي البذرة. من لا يزرع بذرة الإيمان صغيرًا، لن يحصد شجرة العدل والإحسان كبيرًا.

نظر في عينيّ طويلًا، ثم قال وهو يبتسم:
–والآن... لقد عرفتَ جذوري، لكن رحلتي لم تقف هنا. فلتستعد، لأننا سننتقل إلى المرحلة التالية: رحلة العلم، حيث سيأخذ الشاب عبد السلام بزمام الحروف، ليفتش في الكتب، ويسافر بين المدارس والمعاهد، باحثًا عن اليقين.

وبينما كان صوته يتردد في أذني، عاد البساط ينقلنا من القرية الهادئة إلى فضاء آخر، كأن الزمن يطوي صفحاته ليكشف عن فصل جديد من الحكاية.

الفصل الثالث: رحلة العلم

عاد بنا البساط ينساب في فضاء عجيب، كأننا نعبر طبقاتٍ من نور وغيوم شفافة. كانت القرية الطينية تصغر شيئًا فشيئًا خلفنا، حتى صارت مجرد نقطة في الأفق، وبدا أمامنا عالم جديد: مبانٍ مرتفعة، أقسام واسعة، كتب مرصوصة على رفوف، وأصوات طلاب يتجادلون حول مسائل فكرية وأدبية.

ابتسم الإمام وقال:
–ها هنا يا بني تبدأ رحلتي الثانية. من الحروف الأولى في *المسيد*، إلى عوالم أوسع من الكتب والمدارس والمعاهد. لم أكتفِ بأن أكون حافظًا للقرآن فقط، بل رغبت أن أكون باحثًا عن معانيه في واقع الناس، في علومهم، في قضاياهم.

كنتُ أنظر إلى المشهد مأخوذًا: شباب يقرأون دواوين الشعر، آخرون يغوصون في الفلسفة، ومعلمون يتجادلون حول الفكر الحديث. بدا لي الإمام بينهم شابًا متوقد الذهن، يقرأ بنهم، يكتب بنشاط، ينصت بعناية.

قال وهو يرفع كتابًا من على الطاولة:
–الأدب يا بني كان بوابتي إلى العوالم الواسعة. كنتُ مفتونًا باللغة، بالشعر، بالقدرة العجيبة للكلمة أن تحرّك القلوب أو تخدعها. قرأت لكبار الأدباء، تأثرت بالبلاغة، وكنت أبحث في كل صفحة عن معنى يضيء الطريق. لكنني كنتُ كلما أوغلت في بحار الأدب والفكر الدنيوي، أعود لأجد أن القرآن هو البحر الذي لا ساحل له، وأن ما عداه جداول صغيرة إن لم تتصل به جفّت.

جلسنا في قاعة درس، حيث أستاذ يشرح نصًا أدبيًا. التفت الإمام إليّ وقال:
–هنا تعلمت أن العقل نعمة، وأن الفكر أداة، لكنهما لا يبلغان الغاية ما لم يُضبطا بالوحي. كثير من رفاقي كانوا يظنون أن العقل يكفي وحده، وأن الأدب وحده يحرر الإنسان. كنت أراهم يتيهون في متاهات الحداثة والفلسفات المستوردة، بينما قلبي يقول لي: "الحرية الحقيقية تبدأ حين تتحرر روحك من هواك، لا حين تستبدل قيدًا بقيد".

سكت قليلًا، ثم أضاف:
–كنتُ أسأل نفسي دائمًا: ما نفع العلم إن لم يغيرنا؟ ما جدوى الأدب إن لم يحرّكنا إلى عمل صالح، إلى عدل، إلى إحسان؟ العلم الذي لا ينفع صاحبه، ولا ينفع الناس، فتنةٌ ومحنة.

خرجنا من القاعة، لنجد أنفسنا في مكتبة ضخمة، تمتد رفوفها إلى ما لا نهاية. ألوف الكتب، من مختلف العصور واللغات. وقف الإمام بين الكتب، يمرر أصابعه على عناوينها، ثم قال:
–كنتُ أقرأ بنهم، لا أترك كتابًا دون أن أستفيد منه. لكنني كنتُ أتعلم أن أميز: ما يرفعني إلى الله فأقبله، وما يغريني بالدنيا فأحذره. تعلمت أن العقل إن لم يُسلم لله يصبح أداة للطغيان، وأن القلم إن لم يُسخر للحق يصبح خادمًا للباطل.

تقدّمنا بين الرفوف، فإذا بباب يفتح على فصل آخر من حياته: شاب يانِع، طموح لا يعرف حدودًا، شاب يكتب المقالات، يدرّس، يحاور، يتنقل بين أروقة العلم والفكر.

قال لي وهو يتأمل صورته شابًا:
–كنتُ أبحث عن اليقين. قرأتُ للفلاسفة، ودرستُ النظريات، وخضت في قضايا الفكر، لكن قلبي كان يظل عطشانًا. لم أجد الطمأنينة إلا حين عدتُ إلى القرآن، وإلى ذكر الله. وهنا يا بني تعلمت قاعدة العمر: "العلم بلا إيمان وبال، والإيمان بلا علم مآله جمود، فإذا اجتمع العلم والإيمان، قامت الحضارة ونهضت الأمة".

اقترب مني وأمسك بيدي كأنه يريد أن يزرع في قلبي سرًّا:
–يا بني، إن أردت أن تبني مستقبلك، فلا تغترّ بعلوم الدنيا وحدها. خذ منها ما ينفع، لكن اجعل قلبك معلقًا بالقرآن، وروحك متصلة بالله. العلم سلاح، لكنّه قد يكون سلاحًا في يد ظالم إن لم يزنه العدل.

كنت أنصت إليه كأن قلبي يدوّن كل حرف. شعرت أنني أعيش رحلته بين الكتب والمدارس، بين الحلم الفكري والعطش الروحي.

ثم قال وهو يخطو نحو باب آخر يفضي إلى مشهد جديد:
–لكن العلم وحده لم يكن كافيًا. كنتُ في حاجة إلى يد تربت على كتفي، إلى صحبة صالحة تُعيدني إلى الله، إلى شيخٍ دلّني على الذكر والصلاة والروح. من هنا تبدأ المرحلة التالية: التحول الروحي.

ابتسم وهو يودع المكتبة الضخمة، ثم أردف:
–كثيرون يظنون أن طريق الإيمان معزول عن طريق العلم، وأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان. لكنني أقول لك: إنما العلم والإيمان جناحان، من فقد أحدهما سقط.

وبينما كان صوته يتلاشى، كان البساط يعود ليسحبنا إلى عالم آخر، إلى زاوية صغيرة، فيها رجل وقور يذكر الله، وإلى لحظة ستكون منعرجًا في حياته كلها.

الفصل الرابع: التحول الروحي

كان البساط ينساب بنا هذه المرة إلى فضاء مغاير. لم تكن هناك مكتبة، ولا صفوف طلاب، بل زاوية صغيرة، يغمرها نور خافت، ورجال يجلسون حلقًا، يذكرون الله بأصوات متواضعة، كأنهم يقطفون من شجرة أخرى غير أشجار الدنيا.

أشار الإمام إلى رجل جليل، وقور الملامح، عميق السكون، وقال:
–هذا شيخي ومعلمي في الطريق، الشيخ **العباس بن المختار القادري** رحمه الله. على يديه انفتحت أبواب جديدة لم أكن أعرفها، أبواب الروح والقلب.

جلست إلى جانبه، أستمع وكأنني حاضر في تلك اللحظة الأولى. كان الإمام شابًا مثقفًا، ناجحًا في عمله، ذا موقع محترم في وزارة التربية الوطنية. كان يشرف على المعلمين، يضع المناهج، يُستشار في الخطط التعليمية. مكانة لم يكن يحلم بها كثيرون من أبناء جيله.

قال وهو يسترجع الذكرى:
–كنتُ موظفًا محترمًا، لي راتب يكفيني، ولي اعتبار عند الناس. لكن القلب كان يصرخ: أين الله في كل هذا؟ أأعيش لأخدم وزارة تستمدّ قوانينها من غير شرع الله؟ أأضيّع العمر في ترقي إداري، بينما الأمة تغرق في الجهل والاستبداد؟

اقترب من الشيخ العباس، يومها، وقال له متوسلًا:
–دلّني على الله. لقد قرأت كثيرًا، وعملت كثيرًا، لكني أريد أن أذوق شيئًا أعمق.

ابتسم الشيخ، ووضع يده على كتفه، وأجابه بكلمات بسيطة لكنها كالسهم في القلب:
–أكثر من ذكر الله، ولا تُهمل الفرائض، واصحب الصالحين. هذا هو الطريق.

هنا، تغير مجرى حياته. لم يعد عبد السلام المثقف الإداري فقط، بل صار عبد السلام السالك، الذاكر، الطالب لوجه الله.

سكت قليلًا، ثم التفت إليّ وقال بلهجة عميقة:
–يا بني، العلم بلا روح كالهيكل بلا حياة. كنتُ قارئًا، لكنني لم أكن أذوق. وحين عرفت الذكر، وحين جلست في مجالس الصالحين، شعرتُ أنني أتنفس لأول مرة.

خرجنا من الزاوية فإذا بنا ننتقل إلى مشهد آخر: مكاتب وزارة التربية الوطنية. أوراق كثيرة، ملفات متراكمة، اجتماعات طويلة. كان الإمام يجلس خلف مكتب أنيق، يوقّع ويشرف وينصح. لكن على وجهه ملامح حيرة، وكأن شيئًا لا يستقر في قلبه.

قال:
–كنتُ أرى الفساد يتسلل إلى كل ركن: رشوة هنا، محسوبية هناك، مناهج تغرس التبعية بدل الاستقلال، تعليم يخرج موظفين لا رجالًا أحرارًا. كنتُ أرى أنني مهما اجتهدت، فإن البنيان كله معوجّ.

ثم تنهد وأضاف:
–أعطيتُ جهدي كله للتعليم. كنتُ أكتب التقارير بصدق، أزور المدارس، أتابع المعلمين. أنجزتُ ما أنجزتُ، وأثنى عليّ من أثنى. لكنني كنتُ أعود إلى بيتي، فأجد ضيقًا في صدري. أين رسالتي؟ أين أمتي؟

اقترب مني، وقال بصرامة الأب المربي:
–يا بني، قد يُعطيك الله منصبًا وجاهًا، ليختبرك: أتبقى عبدًا للكرسي أم تعود عبدًا لله؟ وأنا اخترت أن أكون عبدًا لله. تركت الوظيفة، وقلتُ لنفسي: رسالتي ليست هنا.

توقفت أنفاسي وأنا أستمع. أن يترك إنسان منصبًا مريحًا، راتبًا مضمونًا، مكانة اجتماعية، من أجل مبدأ، من أجل وفاء لدعوة! شعرت أنني أمام شجاعة من نوع آخر.

ابتسم الإمام وقال:
–كثيرون قالوا لي: أنت مجنون! تترك ما يتمناه غيرك؟ لكنني كنت أرى أن أعظم جنون هو أن يعيش المرء لنفسه، ويبيع آخرته بدنياه.

عدنا إلى الزاوية الصغيرة، حيث كان صوت الذكر ما يزال يملأ الأجواء. جلس الإمام وقال:
–هنا وجدت المعنى: أن أكون عبدًا ذاكرًا، أن أبني نفسي في حضرة الله، ثم أخرج لأبني مع الناس. من هنا بدأتُ أفهم "الصحبة والجماعة". لا خلاص لفرد وحده، لا قيام لأمة إلا بجماعة متحابة متعاونة.

سكت قليلًا، كأن الذكرى أثقلت قلبه، ثم تنهد وقال:
–لكن الأيام تمضي، وقد شاء الله أن يختبر قلبي بفقدان الشيخ العباس بن المختار القادري رحمه الله. كان شيخًا ربانيا، صادقًا، محبًّا لله ولرسوله، على يديه ذقت طعم الإيمان، وفي صحبته وجدت سكينة لم أجدها في الدنيا كلها.

أطرق رأسه، وكأن الدموع تسكن عينيه، ثم تابع:
–لما توفي رحمه الله، تسلم الزاوية ابنه الشيخ حمزة. اجتمع الناس حوله، وظلوا على نهج الذكر والخلوة. لكن قلبي كان يقول لي: الطريق لا يقف هنا. الأمة تنزف، الاستبداد يطحنها، الفساد ينهشها، والمسلمون تائهون بين دنيا تفتنهم وزوايا تعزلهم.

رفع سبابته إلى السماء وقال بحزم:
–آنذاك فهمتُ أن الذكر بلا عمل لا يكفي، وأن الخلوة بلا مواجهة للباطل نقص في الدين. أردت أن أبقى وفيًا للزاد الروحي الذي تعلمته في حضرة الشيخ، لكنني لم أستطع أن أحبس نفسي في جدران الزاوية بينما الأمة كلها تستغيث.

اقترب مني وقال بنبرة حاسمة:
–فاخترت أن أخرج، لا خروجًا على الذكر، بل خروجًا به. أردتُ أن أنقل نور الزاوية إلى الساحة، أن أجمع بين صفاء الروح وقوة الكلمة، بين الذكر والجهاد. هناك أدركت أن "الصحبة والجماعة" أوسع من حلقة صغيرة، إنها مشروع أمة.

ثم أضاف بصوت متأمل:
–لم يكن قراري سهلاً. كثير من الإخوة قالوا لي: ابقَ حيث السكينة. لكنني كنت أرى أن السكينة الحقيقية هي في أن تضع روحك في يد الله، ثم تخرج لتقول للظالم: قف!

ساد صمت قصير، ثم رفع رأسه وقال:
–هنا انتهت مرحلة، وبدأت أخرى. مرحلة جديدة لم تعد فيها الزاوية هي المرفأ، بل صارت الأمة كلها هي الزاوية الكبرى. من هنا بدأت الكتابة، وبدأت مواجهة السلطان بكلمة الحق.

ابتسم ابتسامة مشوبة بالجد، ثم أردف:
–والآن، يا بني، استعد. بعد الذكر والخلوة، سيأتي الامتحان الأكبر: أن تقول كلمة الحق في وجه من لا يرحم.

وبينما كان صوته يخفت، كنتُ أرى الأفق ينفتح على مشهد جديد: قصور شاهقة، حراس يقفون بوجوه جامدة، أوراق تُكتب بحبر غليظ، وكلمات ستصير عاصفة تهزّ أركان الحكم...

الفصل الخامس: الانعطاف السياسي

فتح الأفق أمامنا فجأة على مدينة أخرى غير تلك التي تركناها. كانت الرباط، بعمرانها الصارم، بقصورها العالية، بواجهتها المزخرفة، وبجدرانها السميكة التي تخفي في داخلها أسرار الحكم.

تغير الجو من سكينة الزاوية إلى ثقلٍ مهيب. رأيت حراسًا بوجوه جامدة، أوراقًا رسمية تتداول بين أيادٍ مرتجفة، أقلامًا تسجل كلمات محدودة بإذن السلطان. وسط هذا الجو المتجمد، كان الإمام يسير بخطوات ثابتة، كأنه لا يهاب شيئًا.

قال بصوت عميق:
–هنا يا بني ستبدأ قصة أخرى. لم يعد يكفي أن أذكر الله في خلوة، ولا أن أعلم الناس الحروف. كان عليّ أن أقول للظالم: كفى!

سألته وأنا أراقب القصور العالية:
–ولكن كيف يواجه رجل واحد سلطانا يملك القوة والمال والجنود؟
ابتسم وقال:
–بقوة الكلمة. الكلمة إن خرجت من قلب صادق، فإنها تهزّ قصور الملوك.

أخذني إلى مكتب صغير، حيث جلس على طاولة وبدأ يكتب. كان يخطّ كلماته ببطء، لكنه كمن ينقش على صخر. نظرت في الورقة فإذا بها تحمل عنوانًا سيصير عاصفًا **"الإسلام أو الطوفان."**

قال:
–كتبت هذه الرسالة إلى الملك الحسن الثاني رحمه الله. لم أكتبها بلسان السياسة الماكرة، ولا بلغة المداهنة، بل بلغة القرآن.
قلت له: إن لم ترجع إلى الله، إن لم تُقم العدل، فإن الطوفان سيجرفك، كما جرف فرعون ومن سبقه.

ثم قرأ بصوت جهوري بعضًا مما كتب:
" وأنت المستدرج حين تزعم لنفسك والناس أن لك بركة تنجيك من هجومين... أو لا تعلم أن الله جل قدره يمهل الظالم ويستدرجه؟"

شعرت وأنا أسمع الكلمات أنها ليست مجرد رسالة، بل صرخة مدوية من قلب رجل باع دنياه بآخرته.

قلت له بدهشة:
–أما خشيت السجن؟ أما خفت من غضب الملك؟
أجابني بثقة المؤمن:
–خفت من الله أكثر. وما قيمة الحياة إن عشتها ذليلًا؟ ثم إن السجن يا بني مدرسة أخرى. يقيدون الجسد، لكن لا يقدرون على الروح.

هنا تغير المشهد، فرأيت جنودًا يقتحمون البيت، وأياديَ تفتش الأوراق، وأبوابًا تُغلق خلفه. رأيته في زنزانة ضيقة، جدرانها عارية، فراشها خشن. لكنه كان جالسًا يذكر الله، يرفع سبابته، ويبتسم ابتسامة هادئة.

قال وهو ينظر إليّ من داخل الزنزانة:
–هنا يا بني تعلمت درسًا لا يعلّمه أي كتاب: أن الحرية الحقيقية هي حرية القلب. إن كنت مع الله فأنت حر ولو كنت في قفص، وإن ابتعدت عن الله فأنت عبد ولو كنت على عرش.

كنتُ أراه محاطًا بسجناء آخرين، بعضهم من لصوص، بعضهم من مظلومين. كان يحدثهم عن الله، عن القرآن، عن الأمل. كانوا يصغون إليه وكأنهم يلتقون لأول مرة بشيء اسمه الكرامة.

ثم التفت إليّ وقال:
–السجن لم يكن نهاية، بل كان بداية. هناك كتبت رسائل، هناك تأملت في مشروع "العدل والإحسان". وهناك أدركت أن المعركة ليست مع ملك واحد، بل مع نظام ظلمٍ ممتد، مع حضارة مادية تُميت الروح.

عاد المشهد يتغير، ورأيت خروجه من السجن بعد سنوات، وقد بدا جسده أنهكته التجربة، لكن وجهه يشع نورًا أعظم. الناس يلتفون حوله، بعضهم يخاف، بعضهم يعجب، وبعضهم يسخر. لكنه كان ثابت الخطوة، عازمًا على المضي.

قال:
–لم يكن هدفي أن أتصادم لمجرد التصادم. هدفي كان أن أضع الأمة أمام خيارين: إما أن تعود إلى الإسلام الحق، إلى العدل، إلى الإحسان... وإما أن يجرفها طوفان الاستبداد والفساد.

اقترب مني وقال بنبرة قوية، كأنها وصية مباشرة:
–اعلم يا بني، أن كلمة الحق لا تُقال مرة واحدة. إنها جهاد مستمر، وصبر طويل، ومحنة تتلوها محنة. لكن العاقبة للمتقين.

ثم ابتسم، وقال:
–هنا بدأت معركتي الحقيقية: لم أعد مجرد معلم أو ذاكر لله في زاوية، بل صرت صوتًا يزعج السلطة، وهدفًا لبطشها. لكنني كنت واثقًا أن الله لن يضيع عبده، وأن من سار على دربه فلن يخيبه.

ساد صمت عميق. شعرت أن الفصل السابق من حياته قد انتهى فعلاً، وأن صفحة جديدة قد بدأت. صفحة عنوانها :**المواجهة**.

قال أخيرًا وهو يلوّح بيده:
–والآن يا بني، هيّا بنا. فبعد الرسالة جاء السجن، وبعد السجن سيأتي الحصار، ثم مشروع العمر: بناء جماعة على منهاج النبوة.

وبينما كان صوته يذوب في الأفق، كنت أرى البساط يتهيأ لحملنا من قصور الملوك إلى بيوت متواضعة، حيث ستولد جماعة، ويُصاغ مشروع.

الفصل السادس: سنوات المحنة

انفتحت أمامنا أبواب ثقيلة من حديد، تصدر صريرًا يخترق القلب. كنا نعبر دهاليز مظلمة، رائحتها خانقة، أصوات صراخ مكتوم تتردد من بعيد.

قال الإمام بصوت هادئ وهو يمشي بخطوات ثابتة:
–هنا يا بني قضيت سنينًا من عمري. هنا أرادوا أن يكسروا صوتي، أن يجعلوا من جسدي وعقلي عبرة لغيري. لكن الله كان أرحم بي منهم، فجعل من سجني خلوة، ومن محنتي منحة.

دخلنا قاعة باردة، جدرانها بيضاء، وجوه شاحبة تتحرك ببطء. همس في أذني:
–هذه المصحة العقلية، حيث وضعوني قسرًا بعد رسالة *الإسلام أو الطوفان*. أرادوا أن يقولوا للناس: من يتكلم بالحق مجنون. لكنني كنت أبتسم. قلت لهم: إن كان الجنون أن تقول للظالم "كفى"، فطوبى للمجانين.

رأيته يجلس على سرير حديدي، حوله مرضى يتأوهون. لكنه كان متوضئًا، مغمض العينين، شفتاه تتحركان بالذكر. اقتربت منه وسألته:
–كيف احتملت ذلك؟
أجاب وهو يفتح عينيه المضيئتين:
–بالقرآن يا بني. بالذكر. كنت أقرأ سورة "يس"، فأجد قلبي يرفرف حرًا فوق قضبان الحديد. كنت أستحضر قول النبي صلى الله عليه وسلم: *"عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير"*...فقلت في نفسي: هذه محطة أخرى في الطريق، فاصبر وارتقب.

خرجنا من المصحة، لنجد أنفسنا في سجن ضيق، زنزانة لا يدخلها نور الشمس إلا خيطًا نحيفًا. رأيت الإمام جالسًا على حصير بالٍ، حوله كتب قليلة.

قال:
–في السجن كتبت. كتبت رسائل وخواطر، كتبت أشياء لم يسمحوا بخروجها. كنت أرى أن الكلمة لا تموت، وإن حُبست في جدار، ستجد طريقها إلى القلوب.

كان يتحدث إلى السجناء: لصوص، مظلومون، شباب ضائع. كان يحدثهم عن الله، عن التوبة، عن الكرامة. كنت أرى كيف تتغير وجوههم من قسوة إلى لين، من ضياع إلى بصيص أمل.

ثم أضاف بصوت واثق:
–السجن يا بني ليس مكانًا لإضاعة العمر، بل هو امتحان. قد يخرج بعض الناس منه محطمين، لكن المؤمن يخرج أقوى. تعلمت أن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، فإذا صبر رقّاه.

تغير المشهد مرة أخرى. لم أعد في زنزانة، بل في بيت عادي، لكن نوافذه مغلقة، أبوابه مراقبة، والجنود يحاصرونه من الخارج.

قال:
–بعد السجن جاء الحصار. منعوني من الخروج، منعوا الزوار، أرادوا أن يعزلوني عن الناس. بقيت في هذا البيت سنوات طويلة. لكنني لم أكن وحدي. كان الله معي.

رأيته جالسًا وسط كتبه، يكتب ببطء لكن بإصرار. أوراق متناثرة، دفاتر كثيرة، عناوين تبدأ بـ"المنهاج النبوي"، "العدل"، "الإحسان".

ابتسم وقال:
–إن أغلقوا عليّ الباب، فتح الله لي أبوابًا من الفكر. إن ضيقوا عليّ الحركة، وسّع الله لي آفاق المعاني. فكتبت في الحصار ما لم أكتبه في الحرية.

اقترب مني وهمس:
–لا تظن أنني لم أتألم. كنت أبكي أحيانًا، كنت أشتاق للقاء الأحبة، كنت أتوجع لآهات الأمة. لكن الألم نفسه كان مدرسة. علّمني أن الدعوة ليست كلمات تُلقى في رخاء، بل دموع تُسكب في الليل، وصبرٌ يُبذل في النهار.

تذكر بعض المواقف وقال:
–كانوا يمنعون عني الكتب أحيانًا، فأستعيد ما حفظته من القرآن. كانوا يمنعون عني الورق، فأكتب في ذاكرتي. كانوا يمنعون عني الصحبة، فأستأنس بالله في خلوة طويلة. وهنا فهمت أن العزلة قد تكون نعمة إذا امتلأت بالله.

ثم التفت إليّ ونظر في عيني بعمق:
–اعلم يا بني، أن الطريق إلى الله ليس مفروشًا بالورود. ستجد السجون، ستجد التهم، ستجد الحصار. لكن لا تخف. إذا امتلأ قلبك بالله، فإن كل جدار يصير نافذة، وكل زنزانة تصير محرابًا.

ساد صمت طويل. لم أعد أسمع صخب السجن ولا صرير الأبواب. كنت فقط أسمع صوتًا داخليًا يقول لي: *"المحنة طريق المحبة، والابتلاء بوابة الاصطفاء"*.

وقف الإمام وقال بحزم:
–هكذا علّمتني المحن: أن الله لا يختار عباده إلا بعد امتحان. ومن صبر نال، ومن جزع خسر. وأنا ما اخترت هذا الطريق إلا حبًا في الله ورسوله، وما تمنيت إلا أن يرضى الله عني.

ثم ابتسم وقال:
–لكن المحنة ليست نهاية الطريق. بعد السجن والحصار، كان لا بد أن يظهر المشروع، أن تتجسد الفكرة في جماعة، أن يصير المنهاج النبوي واقعًا.

وبينما كان صوته يتلاشى، بدأت أرى مشهدًا جديدًا: رجال ونساء يجتمعون في بيوت بسيطة، يتناقشون، يقرأون، يتربون على ذكر الله، يتحدثون عن العدل والإحسان... كانت تلك بداية ولادة جماعة ستصير علامة في تاريخ المغرب.

الفصل السابع: المنهاج النبوي

كنا نجلس هذه المرة في غرفة هادئة، جدرانها مغطاة بالكتب، وعلى الطاولة أوراق كثيرة بخطّ متأنٍ، بعضها يحمل عناوين لافتة: *المنهاج النبوي، رجال القومة والإصلاح، الإسلام غدًا* ...

ابتسم الإمام وهو يشير إلى الأوراق وقال:
–يا بُني، هذه ثمار السنين. هذه ليست مجرد كتب، إنها مشروع عمر، سميته **المنهاج النبوي** .أردته خارطة طريق للأمة، لتخرج من وهنها وتستعيد موقعها.

قلت متسائلًا:
–ولماذا اخترت اسم "المنهاج النبوي"؟
أجاب وهو يرفع ورقة بيده:
–لأننا لن ننهض إلا إذا سرنا على خطى النبي صلى الله عليه وسلم. ليست المشكلة أن نضع خططًا بشرية معزولة، بل أن نستلهم منهاجًا من السيرة، من الوحي، من تجربة الرسول مع أصحابه. أردت أن أقول للناس: كما بنى رسول الله ﷺ جيلًا، يمكن أن نبني نحن أيضًا إذا التزمنا خطاه.

اقترب مني، وقال بصوت حازم:
–أساس المنهاج يا بني ثلاثة :**الإيمان، ثم الإحسان، ثم الجهاد** .الإيمان هو أن يعرف القلب ربه. الإحسان أن يعبده كأنه يراه. والجهاد أن يحمل المؤمن هذه المعاني إلى الواقع، إلى الناس، إلى ميادين الحياة، فيواجه الظلم وينصر المظلوم.

ثم جلس على كرسيه وأخذ يشرح كأنه يدرّس درسًا عميقًا:
–الأمة اليوم ليست بحاجة إلى علم بلا روح، ولا إلى زوايا بلا عمل، ولا إلى سياسة بلا أخلاق. الأمة بحاجة إلى **توازن** : تربية للقلوب، وتنظيم للصفوف، وجهاد ضد الاستبداد. هذا هو المنهاج.

قلت وأنا أكتب في ذهني:
–إذن المنهاج ليس كتابًا فقط، بل هو خطة لبناء إنسان وجماعة وحضارة؟
ابتسم وقال:
–أحسنت. أردته أن يكون سلمًا يرتقي عليه المؤمن. يبدأ من **اقتحام العقبة** :عقبة النفس، عقبة الشهوات، عقبة الجبن. ثم يصعد درجة بعد درجة: من مسلم عادي إلى مؤمن صادق، إلى محسن مجاهد.

أخذ كتاب *المنهاج النبوي*، وقرأ منه مقطعًا:
"نريد رجال من نوع جيد، لهم استعداد جيد، ليصبحوا جنودا، ويكون لهم غناء في ميادين الجهاد. أعني بكلمة ***صدق*** *استعداد الوارد ليتحلى بشعب الإيمان، ويندمج في الجماعة ويكون له من قوة الإرادة وطول النفس ما يمكنه من إنجاز المهمات حتى النهاية"* .

أحسست أن الكلمات ليست نظرية، بل نابعة من قلب ذاق.

ثم قال بلهجة المربي:
–يا بني، لا نهضة بلا **صحبة**، ولا قوة بلا **جماعة** .الفرد مهما بلغ ضعيف، يُغلب إذا بقي وحده. لكن حين يجتمع المؤمنون على قلب واحد، يصبحون قوة لا تُقهر. لذلك شددت على "الصحبة والجماعة"، لأنهما مفتاح الطريق.

ثم أضاف بنبرة جادة:
–لكن الجماعة لا تكفي وحدها. لا بد من **عدل** يرفع الظلم عن الناس، و**إحسان** يربطهم بالله. أردت أن أجمع بين الاثنين: العدل الذي يحقق الحرية والكرامة، والإحسان الذي يحقق القرب من الله.

تأمل لحظة، ثم تابع:
–ربما يظن بعضهم أنني كنت أطلب سلطة أو حكمًا. لا والله. كنت أطلب وجه الله. كنت أقول: الحكم وسيلة، لا غاية. الغاية هي أن يعبد الناس ربهم أحرارًا، لا أن يُستعبدوا لعباد مثلهم.

اقترب مني وقال بنبرة قوية:
–اعلم يا بني أن المنهاج النبوي ليس كتابًا يُقرأ ويُغلق. إنه دعوة للعمل، للتربية، للجهاد. هو برنامج حياة.

ثم أشاح بيده نحو الأوراق وقال:
–هذه الكلمات كتبتها وأنا في الحصار. كنت أشعر أنني أزرع أشجارًا لن أجني ثمارها بنفسي، لكنني على يقين أن أجيالًا ستجنيها. أنتم جيل الغد، أنتم الذين ستواصلون الطريق.

تذكرت كلامه في الفصول السابقة، عن الطفولة والعلم والمحنة. كأن كل فصل من حياته كان لبنة، حتى اكتمل البناء هنا في المنهاج النبوي.

قلت له بصدق:
–أشعر أن مشروعك ليس لك وحدك، بل هو وصية للأمة كلها.
ابتسم وقال:
–هذا ما أريده. أن يحمل كل واحد منكم جزءًا من الأمانة. أن تكونوا أنتم الامتداد. أن تعرفوا أن الطريق طويل، لكن العاقبة للمتقين.

سكت قليلًا، ثم نظر إليّ بعينين عميقتين:
–المنهاج يا بني ليس مجرد فكرة. إنه **تربية أجيال**. إن استطعنا أن نربي رجالًا ونساءً ربانيين، فإنهم سيبنون الحضارة من جديد. وإن اكتفينا بالكلام والكتب، فإن مصيرها أن تبقى حبرًا على ورق.

أحسست أن الفصل كله يتوج بخلاصة واحدة: أن الإمام لم يكن مفكرًا نظريًا فقط، ولا زاهدًا معتزلاً، بل كان صاحب مشروع متكامل، يربط الروح بالعمل، الفرد بالجماعة، الدنيا بالآخرة.

ثم قال أخيرًا وهو ينهض من مجلسه:
–والآن يا بني، بعد أن عرفت لب المشروع، فلتستعد للفصل التالي. سأحدثك عني لا كإمام مجدد فقط، بل كإنسان بسيط: أب، وجد، صاحب، يضحك ويبكي، يأكل ويعيش مثل سائر الناس. لأن من يظن أن الداعية ملاك من السماء يخطئ. نحن بشر، لكننا نحاول أن نكون لله.

وبينما كان صوته يخفت، بدأ المشهد يتغير. لم أعد في غرفة مكتظة بالكتب، بل في بيت متواضع، حيث يجلس أحفاد يمرحون، وأب يبتسم لهم برفق.

الفصل الثامن: الإنسان البسيط

لم نعد في فضاء الكتب ولا في قاعات الدروس، بل في بيت متواضع. جدرانه بيضاء بلا زخرفة، أثاثه بسيط، لا رفاهية فيه ولا بهرجة. في إحدى الزوايا، جلس الإمام على حصير نظيف، يراقب بحنان أحفاده وهم يمرحون.

ابتسم وهو ينظر إليهم، ثم التفت إليّ وقال:
–يا بني، كثيرون يظنون أن الداعية يعيش دائمًا في جدٍّ وكآبة، لا يعرف الضحك ولا المزاح. لكنني كنت أرى أن الإيمان لا يُلغي الفرح، بل يباركه. كنت ألعب مع أبنائي وأحفادي، أضحك معهم، وأمازحهم. وكنت أقول لهم دائمًا: "المؤمن وجهه طليق، وبشره ساطع".

رأيته يأخذ حفيده الصغير بين يديه، يلاعبه كما لو كان طفلًا هو الآخر. قال لي وهو يهدهده:
–أحب أن أبقى قريبًا من الأطفال، لأنهم صفحة بيضاء. نظرتهم البريئة تذكرني أن القلب يحتاج أن يظل نقيًا، وألا تثقله الدنيا.

جلسنا إلى المائدة. كانت أطباق الطعام متواضعة: خبز شعير، زيت زيتون، قليل من الخضار. قال وهو يوزع الطعام بيديه:
–هكذا كنت أحب أن أعيش: بساطة بلا تكلف. لست ممن يتلذذون بالمآكل، بل أرى في الاعتدال بركة. رسول الله صلى الله عليه وسلم علّمنا أن نملأ ثلثًا للطعام، وثلثًا للشراب، وثلثًا للنفس.

ثم أضاف بابتسامة خفيفة:
–غير أنني كنت أضحك أحيانًا على نفسي. أبنائي كانوا يمازحونني إذا أكلت أكثر من حاجتي. كنت أقبل مزاحهم، وأضحك معهم. فأنا لست إمامًا عليهم في البيت، أنا أب قبل كل شيء.

رأيته يسير في أرجاء البيت، يتفقد كل زاوية بعين المحبّ. مكتبة صغيرة في ركن، أوراق متناثرة فوق مكتب خشبي قديم، مصحف مفتوح دائمًا في مكان بارز.

سألته:
–وكيف كانت علاقتك بأهلك؟
أجاب وهو يتنهد:
–كنت أحاول أن أكون قدوة. كنت أساعد زوجتي في شؤون البيت، أشاركها في إعداد الطعام أو ترتيب الأشياء. ليس من الرجولة أن يترك الرجل البيت كله على عاتق المرأة. وكان النبي صلى الله عليه وسلم في خدمة أهله، وهو أعظم الخلق.

ثم ابتسم وأردف:
–كنت أبًا صارمًا أحيانًا، لكني كنت أحاول أن أربي بالحب أكثر من القسوة. كنت أقول لهم: "الصدق أولًا، ثم الأمانة، ثم الإحسان".

جلسنا مع بعض الزوار الذين دخلوا عليه. كانوا بسطاء: عامل، فلاح، طالب. رحب بهم كأنهم أعظم الناس شأنًا. جلس معهم على الأرض، بلا كلفة، يحدثهم ويستمع إليهم.

قال لي:
–يا بني، لم أفرّق بين غني وفقير، ولا بين متعلم وأمي. كنت أرى أن الكرامة من الله، لا من الجاه ولا من المال. لذلك كنت أجلس مع الناس جميعًا، وأستمع لهمومهم.

ثم ابتسم وهو يتذكر:
–حتى في أشد أوقات الحصار، كنت أستقبل من استطاع الوصول. كنت أضحك معهم، أمازحهم. وكنت أقول: الدعوة ليست عبوسًا ولا وجوهًا مكفهرة، بل هي حب وبشر.

تأملت وجهه، فإذا هو يجمع بين الهيبة واللين. قلت في نفسي :*كيف يمكن لرجل أن يجمع بين الشدة على الظالمين، والرحمة مع الصغار؟*

كأن الإمام سمع خواطري، فقال:
–هذه سُنّة النبي صلى الله عليه وسلم. كان إذا ذُكر الله خاف كأنه لا يعرفنا، وإذا جلس مع أصحابه كان ألطف الناس. فلا تعجب أن ترى الداعية يبكي ليلًا في خلوته، ثم يضحك نهارًا مع الناس.

ثم أضاف وهو ينظر بعيدًا:
–يا بني، الإنسان البسيط في داخلي هو نفسه الذي وقف في وجه السلطان. لا فرق بينهما. من لا يعرف أن يكون عبدًا لله في بيته، لن يعرف أن يكون عبدًا لله في ساحات الجهاد.

اقترب مني وقال بلهجة عميقة:
–تذكر دائمًا: القدوة لا تُبنى بالكتب فقط، بل بالعيش اليومي. إذا لم يرَك أبناؤك صادقًا في بيتك، فلن يصدقوك إذا وعظتهم في الخارج.

شعرت أنني لم أتعرف فقط على الإمام المجدد، بل على الأب والجد والإنسان البسيط. رجل يجمع بين الضحك والدموع، بين الصرامة والرحمة، بين العلم والبساطة.

وبينما كان يمازح أحفاده، قال لي:
–والآن يا بني، بعد أن عرفتني في البيت، فلنخرج مرة أخرى إلى ساحة الأمة. هناك حيث تتعقد الأمور: السياسة، الفتن، الإعلام، محاولات التشويه. سأحدثك كيف واجهت كل ذلك بالكلمة، بالصبر، وبالمنهاج.

وبينما كان صوته يخفت، تبدلت الصور من بيت متواضع إلى ساحة واسعة، خطباء، إعلام، نقاشات حادة... مشهد جديد يستعد للكشف عن جولة أخرى من رحلته.

الفصل التاسع: الحكيم الناصح

جلسنا في قاعة بسيطة، لا زينة فيها ولا زخرفة، سوى مصحف مفتوح على طاولة خشبية. كان الإمام ينظر إلى الصفحات بتركيز شديد، ثم رفع رأسه إليّ، وقال:

–يا بني، كل ما مررتَ به معي من طفولة وعلم ومحنة ومشروع وبساطة، لم يكن إلا تمهيدًا لوصايا أتركها للأمة. الوصايا أثقل من الجبال، لأنها ليست لي وحدي، بل لكل من يقول: لا إله إلا الله.

أطرق قليلًا ثم تابع:

–أوصيت نفسي أولًا، وأوصيكم جميعًا :**اتقوا الله حيثما كنتم** .اجعلوا الله حاضرًا في سرّكم وعلنكم. فإن ضاع التقوى، ضاع كل شيء.

ثم أمسك بالمصحف، وقرأ بصوت خاشع:

﴿ *إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* ﴾

–هذه الآية، يا بني، جمعت مشروعي كله :**عدل** يرفع الظلم، و**إحسان** يربط القلوب بالله.

جلست مشدوهًا أمام قوة المعنى، فقال:

–لا تنسوا **العدل** أبدًا. العدل أساس الملك، وأساس الدعوة. أمة بلا عدل أمة ساقطة، ولو كثرت شعائرها. والإحسان روح هذا العدل، لأنه يحوّله من قانون جاف إلى عبادة، من إجراء إداري إلى خلق رباني.

تذكر شيئًا، فقال بنبرة حزينة:

–يا بني، أخطر ما رأيته في حياتي أن الاستبداد يخنق العقول، ويطرد الصالحين، ويُربّي أجيالًا على الخوف. فلا بد أن تقولوا كلمة الحق، ولو كانت مرة. لكن تذكّروا: الكلمة تحتاج إلى **صحبة** تسندها، وإلى **جماعة** تحميها.

اقترب مني، وصوته يقطر صدقًا:

–أوصيكم بالصحبة والجماعة. لا تظنوا أنكم أقوياء وحدكم. إبليس يفرح بالمنعزل، يلتهمه بسهولة. أما إذا كنتم جماعة متعاونة، متحابة، فإن الله معكم.

ثم قال مبتسمًا:

–وأوصيكم بالذكر، فهو غذاء القلب. أوصيكم بالصلاة، فهي عمود الدين. أوصيكم بالوالدين، فهم باب الجنة. أوصيكم بالنساء، أنصفوهن، فإنهن شقائق الرجال.

سكت قليلًا، ثم تابع:

–ولا تنسوا **العلم** .لا يكفي أن تتحمسوا دون علم، ولا أن تتحركوا دون بصيرة. العلم نور، ومن سار بلا نور تعثر. تعلموا دينكم، واقرؤوا تاريخكم، ولا تكتفوا بقشور الحضارة المادية.

ثم ابتسم كأن قلبه يرق، وقال:

–وأوصيكم أن تحبوا بعضكم. لا تدعوا للخلاف مكانًا. الأمة اليوم ممزقة، كل فريق يلعن الآخر. إنما الرحمة في الوحدة، وإن القوة في الاجتماع.

شعرت أن كلماته ليست مجرد نصائح، بل خلاصة عمر. قلت له:

–يا سيدي، كأنك تتحدث لا لي وحدي، بل لأجيال ستأتي من بعدك.

أجاب وهو يبتسم ابتسامة واثقة:

–هذا ما أرجوه. أن تصل كلماتي إلى قلوب لم ترَ وجهي، لكنها تشاركني نفس الهمّ. أن يعرف شباب الأمة أن الطريق طويل، لكنه ممكن.

ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال:
–المستقبل للإسلام يا بني، ولو بعد حين. هذه ليست أمنية شاعر، بل وعد رباني. قد تمر الأمة بقرون من الضعف، لكنها ستنهض. أنتم جيل الغد، وأنتم رجال ونساء القومة.

ثم اقترب مني، وهمس كأنها وصية شخصية:
–لا تيأسوا أبدًا. مهما كان الظلم شديدًا، ومهما طال الليل، فإن فجرًا سيطلع. ثقوا في الله، واصبروا، وكونوا ربانيين.

ساد صمت طويل. كان وجهه يضيء بحكمة السنين، كأنه يلخص حياة كاملة في بضع كلمات.

ثم قال أخيرًا:
–هذه وصايا الحكيم، لكن لا تنس أن للشيخ وصية أخيرة خطها بيده، ستسمعها مني في الختام، لتكون عهدًا بيننا وبين الله.

وبينما كان صوته يخفت، بدأتُ أشعر أننا نقترب من نهاية الرحلة. الأفق صار يميل إلى نور جديد، كأنه فجر آخر. كنت أعلم أن الفصل القادم سيكون خاتمة كل ما سبق :**وصية الإمام الأخيرة**.

الفصل العاشر: الوصية

كان الأفق هذه المرة مختلفًا. لم يكن أفق المدن ولا القرى، ولا السجون ولا الزوايا. كان نورًا صافياً، ممتدًا بلا حدود، كأننا على عتبة عالم آخر. شعرت برعشة في قلبي، كأن الرحلة تقترب من نهايتها.

جلس الإمام على حصير بسيط، أمامه ورقة كتبت بخط هادىء، وختمها دعاء خاشع. نظر إليّ وقال:
–ها نحن نصل إلى النهاية يا بني. كل ما رويته لك من طفولة وعلم ومحنة ومشروع وبساطة وحكمة، إنما كان تمهيدًا لهذه اللحظة. اللحظة التي أضع فيها بين يديك، وبين يدي الأمة، وصيتي الأخيرة.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم بدأ يتلو، كأنه يقرأ من قلبه لا من الورق:
–أوصيكم أولًا بالشهادة: أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله. هذه كلمتي الأخيرة، كما كانت كلمتي الأولى. بها نحيا، وعليها نموت، ونتمنى أن نبعث عليها.

أطرق رأسه، ثم تابع بصوت خاشع:
–أوصيكم بتقوى الله، فإنها زاد المسافر إلى الآخرة. أوصيكم بالصلاة، فهي عماد الدين، وبالذكر، فهو حياة القلوب.

ثم رفع سبابته وقال:
–أوصيكم بالوالدين برًّا وطاعة، وبالأرحام صلة، وبالضعفاء رحمة، وبالمظلومين نصرة.

ثم التفت إليّ، وصوته يقطر صدقًا:
–أوصيكم بالصحبة والجماعة. لا تنعزلوا، ولا تغتروا بأنفسكم. جماعة المؤمنين هي سفينة النجاة، ومن تركها غرق في بحر الفتن.

أخذ القلم وكتب كلمة "العلم"، ثم قال:
–أوصيكم بالعلم، فهو سلاح في وجه الجهل، ونور في طريق الدعوة. لكن احذروا العلم الذي لا يقود إلى الله، فإنه حجة عليكم لا لكم.

ثم صمت قليلًا، كأن قلبه يتهيأ للكلمة الأخيرة، وقال:
–أوصيكم بالعدل والإحسان. العدل يرفع الظلم عن الناس، والإحسان يرفع القلوب إلى الله. لا يَصلح أمر الدنيا بلا عدل، ولا يَصلح أمر الآخرة بلا إحسان.

كانت دموعي تسيل وأنا أستمع. شعرت أن كل كلمة تكتب في قلبي قبل أن تكتب على الورق.

رفع يديه إلى السماء، ودعا:
–اللهم اجعل أمتي أمة مرحومة، اجعلها شاهدة على الناس، اجعل شبابها رجالًا ونساءً ربانيين. اللهم اجعلني ممن قلتَ فيهم : *"رضي الله عنهم ورضوا عنه"*.

ثم نظر إليّ نظرة طويلة، وقال بهدوء كأنه يودّعني:
–يا بني، قد بلّغت. هذه وصيتي، وهذه أمانتي. أوصلها لمن بعدك، واحملها كما تحمل نورًا في ليلٍ مظلم. واعلم أن الموت حق، وأنني راحل، لكن الكلمة باقية.

بدأت ملامحه تخفت شيئًا فشيئًا، كأن النور يبتلعه. لم أعد أرى إلا ابتسامة مطمئنة، وصوتًا يتردد في أذني:
–أوصيكم أن تكونوا لله، ومع الله، ولله... حتى تلقوه.

ساد صمت عظيم، كأن العالم كله توقف. شعرت أنني وحدي في فضاء لا نهاية له، ومعي وصية أثقل من الجبال، لكنها أخف على القلب من نسيم الفجر.

أغلقت عيني، وقلت في نفسي: *لقد انتهت الرحلة... لكن الوصية بدأت.*

الخاتمة

ها نحن نطوي آخر صفحة من الرحلة، وقد صحبنا الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله في دروب الطفولة والفتوة، في معارج العلم ومجاهدة النفس، في دهاليز السجون وضيق الحصار، في آفاق الفكر وروح المنهاج، وفي بساطة البيت ودفء الضحكات، حتى وصلنا إلى وصيته الأخيرة.

لم تكن رحلتنا مجرد سرد لسيرة، ولا تسجيلًا لتاريخ، بل كانت عبورًا في نهر من نور. كل محطة فيها كانت شاهدًا على أن الرجال لا يُصنعون صدفة، وأن الكلمات حين تُسكب من قلب صادق، تبقى ما بقي الليل والنهار.

من بين أنقاض الخوف والخذلان، قام رجل يحمل في قلبه همّ الأمة، وفي روحه يقينًا لا يتزعزع أن المستقبل لهذا الدين. لم يغره منصب، ولم تثنه محنة، ولم يزده السجن إلا ثباتًا، ولا الحصار إلا إشعاعًا.

لقد كان عبد السلام ياسين واحدًا من أولئك الذين يعيشون في الدنيا وأعينهم معلقة بالآخرة. عرف أن العمر قصير، فجعله جسرًا لعبور الآخرين، وبذل نفسه ليبقى للأمة أملها.

وها نحن إذ نغلق صفحات هذه الرواية، يبقى صوته يتردد في أعماقنا: *اتقوا الله، تواصوا بالعدل والإحسان، واثبتوا على الصحبة والجماعة، ولا تيأسوا من روح الله.*

فإذا مضى الإمام إلى ربه، فقد أبقى لنا الوصية، وأبقى لنا الأثر، وأبقى لنا الأمل.

ومضى كما أتى...
تفوح منه رائحة الصحراء...
عربي خالص لا شية فيه...
في ظهره انحناء قليل ليليق بمن حمل الإسلام على كتفيه طوال عمره.